كتابة تاريخ الحركة الوطنية المغربية
مشروع رؤية

شارك المؤلف بهذه المداخلة في ندوة عقدها اتحاد كتاب المغرب بتاريخ 11/12 نوفمبر 1988 بالرباط، في موضوع : كتابة تاريخ الحركة الوطنية المغربية

ايها الاخوة

سأقدم لكم في هذه المداخلة مشروع رؤية لاعادة كتابة تاريخ الحركة الوطنية، مشروعا «متواضعا» الى حد أنه يبدو «طموحا» جدا.. انه مشروع متواضع لأنه يكشف عن جميع خلفياته وهواجسه، وهو طموح لانه يطرح اعادة بناء تاريخ الحركة الوطنية المغربية على اساس هذه «الخلفيات» الواضحة..

التاريخ كما تعلمون لا يكتب مرة واحدة، بل تُعَاد كتابته باستمرار، تحت إيحاء او ضغط اسئلة يلقيها الحاضر على الماضي.. لنكن صرحاء مع انفسنا منذ البداية، ولنتساءل : لماذا التفكير الآن في كتابة، او اعادة كتابة، تاريخ الحركة الوطنية ببلادنا ؟

ان طرح هذا السؤال بصراحة سيمكننا من التماس «حَلٍّ مُرْضٍ»، في الوقت الحاضر على الاقل، لقضايا اساسية في الموضوع، منها : قضية البداية والتحقيب، بداية الحركة الوطنية ومراحل تطورها، وقضية التعريف، تعريف هذه الحركة، ومسألة تحديد المحاور التي يجب أن يُبنى عليها تصورنا العام لمسارها ونشاطها واهدافها، وأخيرا، وليس آخرا، رسم آفاق المستقبل على ضوء دروس الماضي.

لماذا التفكير الآن في كتابة تاريخ الحركة الوطنية ؟ سؤال اساسي وضروري. فلنبدأ بطرح الأبعاد التاريخية والجيوسياسية التي تؤطر وعينا اليوم بالحركة الوطنية المغربية : تاريخها، اهدافها، دورها..

قد نختلف في أمور كثيرة حول تاريخ الحركة الوطنية المغربية، ولكننا لا نختلف، ولا يمكن ان نختلف حول الأمر التالي، وهو أن هذه الحركة هي التي قادت، او على الاقل ساهمت مساهمة فعالة وحاسمة، في قيادة نضال الشعب المغربي من اجل الاستقلال الذي استرجع عام 1956.

ان هذا يعني أنه مضت الآن اثنتان وثلاثون سنة على انتهاء المهمة التاريخية «الرسمية» للحركة الوطنية المغربية، انها مدة ثلث قرن، وهذه مدة تضع بيننا وبين «الحركة الوطنية» مسافة زمنية كافية تمكننا من النظر اليها بوضوح اكثر وربما بموضوعية أكثر.. والأهم من هذا هو أن مدة 32 سنة تقترب منا من المدة التي حددها ابن خلدون لعمر الأجيال، وهي مدة 40 سنة. قد نتفق مع صاحب «المقدمة» في هذا التحديد وقد لا نتفق، ولكن لا اعتقد أن أحدا يجادِل في الحقيقة التالية وهي أن عُمُر الفرد، مثله مثل عمر الجيل، كفاعل سياسي، قد لا يتعدى في الغالب أربعين سنة (يبدأ المرء في العمل السياسي حوالي الثلاثين، ويتقاعد حوالي السبعين على الاكثر...)

نريد ان نخلص من ذلك الى هذه الحقيقة الاجتماعية التاريخية السياسية التي تعيشها بلادنا اليوم بِصمت. إن مدة 32 سنة التي تفصلنا عن تاريخ اعلان الاستقلال هي نفسها المدة التي كان في امكان الذين عاشوا مرحلة الاستقلال من رجال الحركة الوطنية ان يواصلوا خلالها نشاطهم كفاعلين سياسيين. ومعنى هذا ان جيل الحركة الوطنية المغربية قد اوشك ان يُكْمِلَ الانسحاب من الميدان، ميدان الحياة السياسية : إما بفعل الوفاة وإما بفعل التقدم في العمر، وإما بنوع من التقاعد السياسي : الاختياري او الاضطراري.

هكذا ترون أن التفكير في تاريخ الحركة الوطنية، تفكيرا صريحا مع نفسه، يقودنا مباشرة الى التفكير في الحاضر، وفي المستقبل كذلك.

لنترك الآن مسألة المستقبل ولننظر إلى الحاضر، الى دور جيل الحركة الوطنية فيه، ولنتساءل. ماذا كان دور ما تبقى في الساحة الوطنية، من رجال الحركة الوطنية، خلال الثلاثين سنة الماضية ؟

لقد بقي رجال الحركة الوطنية منذ الاستقلال الى اليوم يمارسون «الوطنية» اي يُدَافعون عن القضايا الوطنية ويساهمون في «صنع» القرار السياسي والوطني الخاص بها (قضية الجلاء، قضية استرجاع ما تبقى من الاراضي الوطنية تحت الاحتلال...) ان «صنع» القرار حول هذه القضايا لم يكن مكانه «البرلمان» ولا «الحكومة» ولا أية مؤسسة من مؤسسات المجال السياسي «الحديث» في المغرب، وانما كان مكانه ما سنطلق عليه هاهنا عبارة «المجال السياسي التقليدي» الذي قوامه الاتصال المباشر، للمشاورة او المخابرة، مع أعلى سلطة في البلاد.

هذا شيء معروف.. والذي يجب ان نعرفه الآن، أعني الذي يجب ان ننتبه اليه ونَعِيَهُ كامل الوعي، هو ان ظاهرة انسحاب رجال الحركة الوطنية من الميدان، التي أشرنا إليها، معناها أُفُولُ «المجال السياسي التقليدي» بالمغرب. أقول : أُفُولُه، لأنه ليس من الممكن استمراره بدون أهله، فلا يمكن مثلا استقطاب آخرين جدد فيه، وذلك لسبب بسيط وهو ان الانخراط اليوم في «الحركة الوطنية» لم يعد ممكنا. يمكن أن يصبح الانسان (على لاقل عندنا) مُقَاوِماً بامتلاك ورقة مقاوم، بطريقة من الطرق. ويمكن للانسان في بلادنا ان يصبح «زعيم» «حزب» و «رئيس» فرقة «برلمانية» بمجرد القيام بـ«الإجراءات» الادارية المعروفة.. ولكن لا يمكن لأي انسان كيفما كان ان ينخرط في الحركة الوطنية. إن زمن الانخراط فيها قد انتهى يوم 16 نوفمبر 1955، يوم عودة الملك محمد الخامس من المنفى، اليوم الذي أعلن فيه عن «انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية».

أُفُولُ «المجال السياسي التقليدي» في المغرب، شيء محقق.. فما البديل ؟

سؤال يخص المستقبل. والحديث عن المستقبل الوطني حديث أمَانٍ وتمنيات.. فلنتركه الى حين ولنعد الى موضوعنا، الى التاريخ : تاريخ الحركة الوطنية المغربية.

أعتقد أننا حددنا في الفقرات الماضية جانبا هاما من جوانب الوظيفة التاريخية للحركة الوطنية المغربية، بعد إعلان الاستقلال، وظيفة الفاعل السياسي المساهم في صنع القرار السياسي / الوطني، لنتساءل الآن، هل قامت هذه الحركة بنفس الوظيفة خلال عهد الحماية وقبله ؟

واضح ان هذا السؤال يجعلنا ننظر الى الحركة الوطنية المغربية خلال عهد الحماية في علاقتها مع «الدولة المغربية» وليس فقط مع إدارة الحماية كما جرت العادة بذلك. والدولة المغربية كما نعرف ظلت قائمة عمليا وقانونيا، وكان على رأسها ملك شارك بصورة فعالة وحاسمة في قيادة العمل الوطني من اجل الاستقلال.. ويؤكد تاريخ الحركة الوطنية المغربية، تاريخها الفعلي الملموس الذي يعرفه الناس جميعا، أنه كان هناك، في عهد الحماية، مجال سياسي تقليدي (قوامه المشاورة والثقة المتبادلة..) يصنع فيه القرار الوطني، وكان الفاعل السياسي في هذا المجال طرفان : القصر وعلى رأسه محمد الخامس من جهة، وقيادة الحركة الوطنية من جهة أخرى، وكانت الأرضية الحاملة لهذا المجال السياسي هي جماهير الشعب الذي تؤطره بكيفية من الكيفيات تنظيمات الحركة الوطنية ودعايتها.. كان هناك، اذن، شعب ودولة على رأسها ملك (وكان في ذلك الوقت هو وحده الدولة المغربية)، وبينهما مجال سياسي وطني تتحرك فيه الحركة الوطنية، كفاعل سياسي يقوم بدور «التوسط» (بالمعنى المنطقي)، فتقدم مطالب الشعب الى الملك (وايضا الى الحماية الفرنسية بوصفها تمثل الآخر / الخصم) : تكفي الاشارة الى المطالب الخاصة بالغاء الظهير البربري (1930) والى مطالب الشعب المغربي (1934) والى عريضة الاستقلال (1944) والى مفاوضات ايكس ليبان (1956)..

تلك هي الوظيفة التاريخية للحركة الوطنية المغربية خلال عهد الحماية، وهي لا تختلف شكلا عن وظيفتها بعد الاستقلال، لأن المجال السياسي «التقليدي» ظل هو هو. وهي لا تختلف مضمونا كذلك لأن «المطالب» التي تمحور حولها عمل الحركة الوطنية خلال الحماية، هي نفسها التي تركز عليها عملها بعد الاستقلال.. والى اليوم. هذه المطالب تدور كما نعرف جميعا، حول الموضوعات الرئيسية التالية :

1 ــ سيادة المغرب ووحدة شعبه ووحدة ترابه.

2 ــ الاصلاح الاقتصادي الاجتماعي الثقافي في افق تحديثي.

3 ــ تحديث المجال السياسي باقامة ديمقراطية عصرية قوامها مؤسسات تمثيلية حقيقية.

لقد حددنا الوظيفة التاريخية للحركة الوطنية المغربية ومحاور نشاطها ونضالها خلال ما مضى من عهد الاستقلال، وخلال عهد الحماية.. فهل يمكن قراة هذه الوظيفة وهذه المحاور نفسها في العمل الوطني خلال فترة ما قبل الحماية ؟

سؤال نجيب عنه بالايجاب. ذلك لأن كل من له إلْمَامٌ بتاريخ المغرب الحديث يعرف انه ابتداء من هزيمة الجيش المغربي في واقعة اسلى عام 1844 بدأت تتبلور حركة وطنية، في المغرب، ركزت نشاطها، منذ البداية، حول المحاور الثلاثة المذكورة : السيادة الوطنية، الاصلاح والتحديث (في الاقتصاد والمالية والجيش)، انشاء نوع من الحياة الدستورية النيابية.. ومعروف أن نشاط النخبة الوطنية المغربية حول هذه المحاور أخذ يتّسع ويتعمق مع الاحداث التاريخية التي عرفها المغرب منذ ذلك الوقت : هزيمة تطوان 1860، مؤتمر مدريد 1880، مؤتمر الجزيرة الخضراء 1906، معاهدة الحماية 1912.

وطوال هذه الفترة، فترة 1844 ــ 1912 كان هناك مجال سياسي تقليدي، هو استمرار فعلا لنفس المجال الذي كان قائما منذ تاسيس الدولة في المغرب، مجال الشورى والفتوى... الخ، ولكن الجديد هذه المرة اي منذ 1844 هو ان الحركة داخل هذا المجال كانت تتم في أفق تحديثي، تحديث الجيش، تحديث المالية، تحديث القاعدة الاقتصادية وايضا تحديث المجال السياسي نفسه بطرح قضية الدستور والحياة التمثيلية... وكما نعرف جميعا فقد انتهى تطور هذا المجال الى تاسيس «مجلس الاعيان» واقتراح مشاريع دساتير.. وجاءت الحماية الفرنسية سنة 1912 لتسجل بداية مرحلة جديدة في نفس المسلسل... مرحلة فقط.

اذن هناك استمرارية تاريخية لنشاط الحركة الوطنية المغربية منذ 1844 الى 1912 الى 1956 الى اليوم : نفس الوظيفة التاريخية، نفس الاهداف والجديد اليوم هو ما لاحظناه قبل من الانسحاب التاريخي لجيل الحركة الوطنية، وبالتالي للحركة الوطنية نفسها... والسؤال الذي يطرح نفسه هو : وماذا بعد ؟

ليس من مهمة مؤرخ الحركة الوطنية الاجابة عن سؤال يتعلق بما بعدها.. ومع ذلك فان الاخلاص للروح الوطنية التي قادت هذه الحركة يتطلب منا ان نصوغ جوابا من حقل تفكيرها وهمومها... ولكي نعطي لجوابنا شيئا ما من المصداقية، والواقعية كذلك، نعود الى المعطيات التاريخية والجيوسياسية التي تؤطر وضعنا الراهن لنلاحظ :

1 ـــ التطورات التي حدثت وتحدث في كل من تونس والجزائر حيث بدأت هناك ايضا عملية الانسحاب الرسمي للحركة الوطنية التي احتكرت ـــ هناك على العكس مما هو الحال في المغرب ـــ المجال السياسي كله. والاتجاه، اتجاه الامور، هناك في تونس والجزائر، هو الى «الحداثة السياسية»، الى الحياة الديمقراطية، وقد تجري الأمور بسرعة في الجزائر أو فيها وفي تونس معا الى الدرجة التي تبدو فيها «الديمقراطية المغربية» القائمة منذ 1956، والتي كنا نفخر بها عليهما، شيئا متخلفا.. ينتمي الى عهد مضى..

2 ـــ هناك من جهة ثانية الوحدة الاروبية التي تفرض الآن على بلدان المغرب العربي الدخول في نوع من الوحدة (سواء الوحدة من أجل تسهيل التبعية لاروبا أو من أجل التحرر منها)، والوحدة في المغرب العربي ليس من الضروري ان تكون وحدة على صعيد انظمة الحكم.. ولكن من الضروري ان تكون وحدة على صعيد المؤسسات، وبالتالي لابد من مجال سياسي جديد، مجال اتخاذ القرار.

3 ـــ لنضف اخيرا، وليس آخرا، أن الاتجاه العام في عالم اللحظة الراهنة هو «الانفتاح» و «الشفافية» وبالتالي الممارسة الديمقراطية.

هذه المعطيات تجعلنا نتفاءل بأن غياب المجال السياسي التقليدي في المغرب، بسبب انسحاب رجال الحركة الوطنية سيعقبه، اخيراً، تحقيق أعز مطالب الحركة الوطنية المغربية، منذ 1844 الى اليوم، مطلب تحديث المجال السياسي في البلاد من خلال اقامة ديمقراطية فعلية اوسع واعمق..

بعد هذه الاطلالة على المستقبل، التي ارادت ان تكون متفاءلة وباصرار، ننتقل الآن الى رسم خطاطة عامة لمشروع اعادة كتابة تاريخ الحركة الوطنية على اساس الرؤية التي حددنا اطارها في الصفحات الماضية، اي على اساس بناء هذا التاريخ على المحاور الثلاثة التالية :

1 ـــ نضال الحركة الوطنية منذ 1844 الى اليوم، من اجل استقلال البلاد ووحدة شعبها وترابها.

2 ـــ تحركها في افق الاصلاح والتحديث

3 ـــ وظيفتها التاريخية داخل المجال السياسي التقليدي ومطالبتها بتحديثه : باقرار ديمقراطية حديثة.

هذا عن المحاور، أما عن المراحل والموضوعات فيمكن تحديدها، بصورة اجمالية سريعة، كما يلي :

1 ــ مرحلة : 1844 ــ 1912

ــ مقاومة التوسع الاستعماري الفرنسي في الجنوب والشرق.
ــ مقاومة التدخلات الاروبية باسم «الاصلاحات».
ــ المطالب الوطنية بالاصلاح والتحديث.
ــ تطور الشورى التقليدية.. الى «مجلس الاعيان»
ــ الحركة الدستورية في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن.
ــ اطلالة على الظروف الدولية..

2 ــ مرحلة : 1912 ــ 1930

ــ الثورة الشعبية إثر التوقيع على معاهدة الحماية.
ــ المقاومة المسلحة في الريف والاطلس والجنوب.
ــ تطور الحركة السلفية «الوهابية» الى سلفية وطنية.
ــ الحركة الوطنية في الشمال (طنجة ــ تطوان) ونشاط الأممية الثالثة.
ــ تبلور فكرة المغرب العربي ونشاط الوطنيين المغاربة في الخارج (باريس خاصة : نجمة شمال افريقيا، اتحاد طلبة شمال افريقيا المسلمين ...الخ)

3 ــ مرحلة 1930 ــ 1956

ــ مقاومة «السياسة البربرية الفرنسية» في مختلف ابعادها.
ــ الارتباط بالملك محمد الخامس وبعث المجال السياسي التقليدي
ــ من مطالب الاصلاح الى عريضة الاستقلال.
ــ نشوء الطبقة العاملة المغربية ودورها..
ــ الحزب الشيوعي والمسألة الوطنية.
ــ العلاقات مع المغرب العربي.. والمشرق.
ــ المقاومة وجيش التحرير، والتطور داخل الحركة الوطنية.
ــ الدور التحديثي للحركة الوطنية : من الطريقة الى الحزب..
ــ محاولات الفرنسيين خلق قوة ثالثة.

4 ــ مرحلة ما بعد 1956

ــ الصراع على السلطة واستمرارية المجال السياسي التقليدي
ــ الصراع داخل الحركة الوطنية ومسألة الديمقراطية
ــ الصراع الاجتماعي والوضع الطبقي والاحزاب الجديدة.
ــ الانسحاب التاريخي للحركة الوطنية ومسألة «البديل».

5 ــ خاتمة :

آفاق المستقبل : من اجل مغرب حرٍّ ديمقراطي.

تلك هي الخطاطة العامة لبرنامج عمل من اجل اعادة كتابة تاريخ الحركة الوطنية... وكما تُلاحظون فمشاغل الحاضر هي التي تحيلنا الى الماضي، وَكتابة تاريخ الحركة الوطنية، عندنا او عند غيرنا، لا يكون له معنى الا اذا كان هو نفسه عملا وطنيا.. من أجل الحاضر والمستقبل.

شكرا على انتباهكم والسلام عليكم